وزارة التعليم العالي
والبحث العلمي

جامعة المستقبل
كلية الآداب والعلوم الانسانية
قسم الآثار

آثار العرب قبيل الإسلام

المرحلة الأولى

العمارة والفنون في العراق قبل الإسلام

الحيرة

م.م حيدر جبار حسن

٢٠٢٤ ـ ٢٠٢٥

الحيرة

مدينة تقع على بعد ثلاثة اميال من مدينة الكوفة، قرب النجف الأشرف، قامت على نهر الفرات من الجهة الغربية في حدود البادية، وموقع الحيرة من أطيب واجمل البلدان وألطفها هواء وأعذبها ماء وأفضلها تربة وأصفاها جوا، ترتفع عما جاورها من الأراضي واتصلت بالمزارع والجنان والمتاجر العظام، لأنها كانت بظهر البرية و على ممر السفن في الفرات فترسوا في الخليج العربي ومن ثم إلى الصين والهند وغيرهم من البلدان.

بدأت هذه المدينة بلدة صغيرة شأنها شأن بقية المدن ثم ازدهرت على مر الأيام في عهد دولة المناذرة آل نصر اللخميين واختلف العلماء في اسم من بنى الحيرة أول الأمر فمنهم من ذهب إلى ان نبوخذ نصر (٦٠٥ – ٥٦٢ ق.م) ملك بابل في زمان معد بن عدنان قد وثب على من كان في بلاده من تجار العرب اللذين يقدمون عليهم بالتجارات والمبيعات منها التمر والثياب وغيرها فجمعهم و بنى لهم حيرا على النجف الأشرف وحصنه ثم ضمهم فيه ووكل بهم حرسا وحفظة، وقيل ان "التبع" الحميري احد ملوك دولة حمير (١١٠ ق.م / ٥٢٧ م) هو من حير الحيرة وقد ورد ذكر تبع في القرآن الكريم قال تعالى :

((أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)).

تسمية الحيرة:

ولقد اختلف المؤرخون في تفسير اسم الحيرة و مصدر اشتقاقه حيث يرى البعض أن كلمة الحيرة هي من الكلمات الآرامية وهي (حرتا) و يقابلها في السريانية (حيرتو)، و معناها المخيم والمعسكر، وأن كلمة(حيرتا) و(حيرة) التي وردت في التواريخ السريانية عندما تعرضت للغساسنة بالذكر تقابل كلمة (معسكر) عند العرب.

هناك من المؤرخين من يرى أن (الحيرة) الآرامية والسريانية (الحير) العربية إنما هي من أصل سامي واحد.

يذكر الإخباريون العرب أن اسم (الحيرة) مشتق من (الخَيْرَةُ) لأن (تبان أسعد أب كرب) بعد خروجه من (اليمن) يريد (الأنبار) و لما انتهى إلى موضع (الحيرة) ليلاً تحير وظل دليله فأطلق بذلك اسم الحيرة عليها.

ورود اسم مدينتين هما (حيرتا) وهي (الحيرة) و(عاناتا)،(عانة) في كتاب يرجع تأريخه إلى سنة (١٣٢م) كما يشير إلى احتمال أن تكون حيرتا هذه هي (الحيرة)، وبذلك تكون هذه الكتابة أقدم كتابة وصلت إلينا حتى الآن ورد فيها هذا الاسم، كما أن مدينة (بيرثا) هي مدينة فرثية تقع على الفرات، وهي الحيرة حسب ذكره، وقيل في معنى الحيرة البلد المسور وكان يطلق عليها بالحيرة البيضاء لحسنها.

بدأ خراب الحيرة منذ أنشأ المسلمون الكوفة سنة (١٧هـ) (٦٣٨م)، وبني بعض قصور الكوفة وبيوتها بآجر واساطين رخام قصور الحيرة، وقد نهج أعراب تلك الديار تلك الطريقة وهدموا قصور الحيرة وبيوتها على مر القرون وتتابع الأجيال للاستفادة من انقاضها في الأبنية الحديثة التي بنوها.

العمارة في الحيرة

اشتهرت الحيرة بنهضتها العمرانية الكبيرة التي طغت على بقية المناطق المجاورة في عصرها وتناقلتها الأخبار والشعراء اذ بنيت بها القصور والدور والاديرة والكنائس التي صارت شاهدا حياً على مدى ازدهار واتساع عمرانها بلا شك تأثر الفن المعماري الحيري بعمارة الحضارات والممالك السابقة والمعاصرة لهم من خلال صلاتهم التجارية، الا ان اهل الحيرة طوروه بشكل افضل من أصوله الأولى فقد صار فناً معمارياً قائما بذاته واستمر حتى العصور الاسلامية اذ اتبع المتوكل العباسي (٢٣٢هـ_٢٤٧هـ) في بناء قصوره طراز البناء المعروف (بالحيري).

ويذكر ان عدد القصور في الحيرة سبعة عشرة قصراً او قد يزيد عن هذا العدد ويمتاز الفن العماري الحيري بالقباب العالية والعقود نصف الدائرية المنحدرة فكرتها من العمارة الاشورية لأبواب المدن وقصور الملوك، واستخدم الحيريون في تشييد مبانيهم اللبن والاجر والمرمر والجص والقرميد.

وقد استعان ملوك الحيرة بابرع وامهر البنائين والمعماريين والمهندسين لبناء قصورهم التي كانت على هيئة حصون حربية، ومنها...

١_ قصر الخورنق

٢_ قصر السدير

٣_ قصر الأبيض

٤_ قصر الفرس

٥_ قصر الزوراء

٦_ قصر الغريان

٧_قصر الطين

٨_ القصور الحمر

٩_ قصر العدسيين

١٠_ قصر سنداد.

الأديرة والكنائس

من العمائر الأخرى التي عرفتها الحيرة واشتهرت بتعددها وجمال رونقها من بين الممالك القديمة في عصور ما قبل الإسلام واستمرت حتى في العصور الإسلامية على طول مدة قيام الحيرة هي عمارة الأديرة والكنائس، ويذكر ان الكنيسة في العراق والتي سميت (كنيسة الشرق) كانت ذات بناء تخطيطي يختلف عن بناء الكنيسة في

سوريا التي كانت متأثرة بالفن الهلنستي والفن البيزنطي، ويرجع طراز الصحن المستطيل للكنيسة العراقية إلى تقليد معماري بابلي قديم، ومن هذه الأديرة .....

١_ دير ابن براق

٢_ دير ابن وضاح

٣_ دير ابن مزعوق

٤_ دير الاسكون

٥_ ديارات الاساقف

٦_ دير الاعور

٧_ دير توما

٨_ دير الجماجم.

حانات الحيرة

الحانة الموضع الذي يباع فيه الخمر، والحانات وحوانيت الخمر عبارة عن بيوت لها مستلزمات أهمها وجود الخمر، وتكون عادة في جرار وكؤوس وأباريق، ونساء ورجال يديرون تلك الحانات بالإضافة إلى الآلات الموسيقية لبعث المرح في نفوس المرتادين، ويتخلل الحانة الرقص والحركات النسائية المغرية، وقد كانت حانات الحيرة تعج بالمغنيات الفارسيات والروميات واليونانيات، ولابد من وجود مغنيات عربيات لأنه ورد في العديد من المصادر أن هذه المغنيات كن يغنين قصائد النابغة الأعشى وهذا الغناء لابد أن يكون بلسان عربي فصيح.

ويبدو أن الحيرة تفوقت في صناعة الخمور بسبب زراعة الكرمة التي كانت منتشرة ومن الأمكنة الخيرية المشهورة بهذه الصناعة (طيزناباذ) والمسماة الآن في العراق (طعيريزات) حيث اكتشفت عشرات الجرار الفخارية الخاصة بصنع الخمر وطول الواحدة يقارب المتر.

ومن أشهر حانات الحيرة .....

١_ حانة جابر

٢_ حانة حنين الخمار

٣_ حانة دومة

٤_ حانة عون

٥_ حانة شهلاء

٦_ حانة طيزناباذ.

التحصينات الدفاعية في الحيرة

اهتم ملوك الحيرة على غرار الساسانيين لتقوية حدودهم المطلة على عرب البادية لأنهم أدركوا من خلال تعاملهم مع العرب أن القوة الصارمة لازمة لكبح جماحهم، و الحرص على غزوهم لذلك أقاموا مراكزاً محصنة وبنوا ما عُرف (المسالح) في المشارف المؤدية إلى أرياف العراق وأقاموا فيها حاميات قوية ذات بأس ولها علم بالبادية ودروبها تستطيع تأديب الأعراب ومراقبة تحركاتهم وتجمعاتهم، وكان يقوم على هذه (المسالح) أناس من السكان المحليين ليسهل عليهم السكن في هذه المواضع، وكانوا لا يتقاضون على ذلك أجراً بل يعيشون على ما يزرعونه بأنفسهم، أو ما يدفع إليهم من غلات الفلاحين الذين يعفون من دفع ما عليهم من استحقاق الدولة، وكانت الحيرة عند ظهور الإسلام عبارة عن قصور، كل قصر تسكنه عائلة كبيرة، وهو مخزن ومستودع وحصن تتحصن به عند وقوع خطر على المدينة، وبأعلى القصر مواضع لرمي الأعداء يلوذ بها أصحابها لحماية أنفسهم من الأذى، ويذكر أن هناك خندق حفر في برية الكوفة حفره سابور للحماية من هجمات العرب.

الفن في الحيرة

ولم يقتصر عمل الفنان الحيري على فن البناء والعمارة، بل امتد ليشمل بعض الأعمال اليدوية كصناعة الفرش الظريفة، وأواني الفخار المطلية بألوان بهية وصناعة الأطباق الجميلة التي تقدم فيها الفاكهة، فضلا عن صناعة أدوات الترف والزينة كعمل المصوغات الذهبية والفضية وترصيعها بالجواهر، أو استخدام العاج في صنع الأساور، كما تفننوا في النقش والزخرفة وبالرسوم وبطلاء السقوف بالفسيفساء والذهب، والجدير بالذكر هو خلو هذه الرسوم من تمثيل الإنسان في الحيرة والاقتصار على تمثيل الزهور والفواكه والبقول في وقت سبق ظهور الإسلام، وهذا يدل في حالة ثبوته على أن ثمة صلة بين توجهات الفن الحيري في الرسم والزخرفة وبين توجهات الفن الإسلامي.

(آثار مدينة الحيرة)